حصة الأسبوع: 14 أبريل 2020

المحور الرابع: الأدب المغربي: الظواهر والقضايا

1- لمحة تاريخية عن الحياة السياسية والأدبية بالمغرب

كان البحر المتوسط معروفا من قبل ببحر الروم، وذلك في المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور العرب المسلمين، حيث كان البربر يعبدون الأوثان وتعرضوا لظلم شديد من طرف الروم مما أدى إلى ثورتهم، وهو ما استدعى البحث عن تحالف مع القبائل العربية لقتال الروم. وقد تطلب الفتح الإسلامي للمغرب مدة تتجاوز سبيعن عاما، سبقته محاولات استطلاعية من طرف عقبة بن نافع الفهري (90هـ/642م)، ليتواصل بالحملة التي قادها موسى بن نصير والتي تمكن خلالها من إخضاع المغرب الأقصى سنة 90هـ/708 م، فصار بذلك المغرب الأقصى تبعا لحكم الدولة الأموية كولاية من الولايات قبل أن يصير تابعا لحكم بني العباس إبان سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ.

بعد هذا الفتح، تأسست دويلات في بلدان المغرب، حيث قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وامتد حكمها حتى القرن الرابع، ثم تلتها دولة المرابطين في القرن الخامس، وبعدها سيطرت الدولة الموحدية (المصامدة) على بلاد المغرب، قبل أن تعرف انقساما إلى دول ثلاثة هي: دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ودولة بني عبد الواد (بني زيّان) في المغرب الأوسط، ثم دولة بني حفص في المغرب الأدنى.

تأسست العاصمة الإسلامية الأولى للمغرب العربي على يد عقبة بن نافع، حيث شكلت القيروان، وهي أول عاصمة للمغرب العربي، مركزا عسكريا، حيث جعلها عقبة معسكرا للجند، وعرفت هذه المدينة ازدهارا حضاريا على يد أمراء الدولة؛ وستظهر معالم هذا التطور الحضاري بشكل أكثر جلاء في عهد المعز بن باديس بن يوسف (ت 453هـ)، أي في عهد الصنهاجيين، حيث كان المعز مولعا بالثقافة والأدب، وهو ما جعل بلاطه مفتوحا للأدباء والعلماء، وقد عرف منهم ابن أبي الرجال صاحب كتاب "البارع في أحكام النجوم"، وهو الكتاب الذي سينقل إلى اللغة القشتالية بأوامر من ألفونسو العاشر ملك قشتالة.

قام الأعراب بتخريب القيروان، وذلك ما جعل المعز يلجأ إلى المهدية وجعل منها عاصمة له، كما عرفت مجموعة من المدن ازدهارا حضاريا أمثال تلمسان وبجاية وصفاقس وفاس، هذه الأخيرة شهدت تطورا كبيرا حيث اجتمع فيها ما كان في قرطبة وكان في القيروان من علم، إذ عُرفت قرطبة بأنها القطب الحضاري للأندلس، كما عرفت القيروان بأنها حاضرة المغرب، وقد تشابهت أحوالهما بعد السقوط، إذ اضطربت أحوال قرطبة بعد سقوط دولة بني أمية إثر الخلاف الذي نشب بعد موت المنصور محمد بن أبي عامر، كما اضطربت أحوال القيروان نتيجة عبث الأعراب، فخفت إشعاع الحاضرتين وغادرهما من كان بهما من العلماء

في اتجاه الحواضر الجديدة وخاصة فاس وتلمسان، إلى جانب من اتجه صوب مصر وغيرها من الأقطار الأخرى.

صارت مدينة مراكش حاضرة للمرابطين والموحدين، وجعلوا منها دار مملكة لا لتفضيلها عن فاس وإنما لقربها من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، كما أسس الموحدون مدينة رباط الفتح، وشيدوا بها مسجدا بمئذنة على غرار ما كان معروفا في منارة الاسكندرية. وقد كانت مدن المغرب مراكز ثقافية وجسراً عبرت عليه تيارات الثقافة في طريقها من المشرق إلى إسبانية.(انظر محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي).

-2الأدب المغربي في العصر المرابطي

-1.2- الأدب المغربي والأندلسي: التأثير والتأثر

ككل الآداب، عرف الأدب المغربي هبوب رياح المشرق والأندلس باعتبارهما تجربتين سابقتين، غير أن هذا التأثير لم يمنع الأدب المغربي من الاحتفاظ بشخصيته المستقلة، لذلك سنحاول في هذا المحور رصد أهم عوامل التأثير المشرقي والأندلسي في الأدب المغربي، كما سنقف عند تجليات هذا التأثير قبل الوقوف عند المكون المغربي ومظاهر بروزه.

1.1.2- عوامل تأثير الأدب الأندلسي في الأدب المغربي

أ- الوحدة بين المغرب والأندلس (العدوتان)

استطاع يوسف بن تاشفين أن يوحد بين العدوتين (المغرب والأندلس)، حيث جعلهما مندمجتين في وطن واحد بينهما علاقات تجارية وثقافية، فكان أشبه ما يكون بوطن واحد تنعدم فيه الفوارق السياسية بين مكونيه، فكان المغرب أول مدافع عن الأندلس، وكان الاندلسيون يصدرون ثقافتهم وعلمهم للمغاربة، فكان طبيعيا أن تزدهر الحياة الفكرية بالمغرب وتعرف العلوم والآداب انتشارا ونهضة ولكن بملامح أندلسية لا يمكن فصلها نموذجها عن نسختها، فكانت هذا الوحدة الثقافية والعلمية امتدادا لما عرفه المجال السياسي من توحيد بين العدوتين.

ب- الهجرة

نظرا لقرب المسافة بين المغرب والأندلس، فقد عرفت الهجرة بين البلدين نشاطا منقطعا، حيث كان طلب العلم مطلب المغاربة للهجرة إلى الأندلس، وهو ما مكنهم من مزيد من الاحتكاك بالعلماء، فكان طبيعيا أن يستقدموا الثقافة الأندلسية إلى المغرب الذي صار حاضنا للثقافة العربية الأندلسية، وهو أمر باد على شعر المغاربة.

في مقابل ذلك، كانت الدوافع السياسية أبرز دافع للأندلسيين للهجرة نحو المغرب، ومثال ملوك الطوائف المخلوعين في العصر المرابطي خير شاهد على هذا الصنف من الهجرة؛ أما علماء الأندلس فقد دفعهم طلب الشهرة والتقرب من الحكام إلى الهجرة نحو المغرب، وهو ما نتج عنه في كل الأحوال امتزاج الحضارتين حتى تكاد تنمحي الفوارق بين المغاربة والأندلسيين، فقد عرف مثلا أبو القاسم محمد الشريف السبتي المغربي، بالشريف الغرناطي لإقامته بغرناطة.

ج-المعتمد بن عباد بالمغرب

كان المعتمد بن عباد شاعرا مجيدا، وعند نفيه بالمغرب كان مَحَجّا للأدباء والشعراء، يستمعون إلى شعره ويساجلونه ويمدحونه ويحفظون أشعاره، ولم يقتصر الأمر على شعراء المغرب، بل قصده شعراء الأندلس أيضا كابن حمديس وابن اللبانة...فكان طبيعيا أن يكون لهذا التلاقي تأثير قوي على الأدب في المغرب.

د- التنافس بين أدباء المغرب والأندلس

عرفت العلاقة بين العدوتين تنافسا شديدا في عهد الدولة المرابطية، وازدادت توهجا في عهد الدولة الموحدية، ويرجع سبب هذا التنافس إلى العوامل السياسية، فقد كان الإحساس بالتعالي نظرا لوجودهم في الحكم ينتاب المغاربة، في حسن كان السبق أو التعالي الثقافي مهيمنا على الأندلسيين، وقد شكل نموذج المفاضلة بين الشقندي وابن المعلم الطنجي خير نموذج يعكس نظرة الاستعلاء وتحقير الأدب والفكر المرابطي.

هـ- الخلفاء وتشجيع الأندلسيين

كانت الدواوين في عصر الدولة المرابطية في حاجة إلى كتاب رفيعي المستوى للقيام بمهام التسيير وكتابة الرسائل، ومحاولة إضفاء الطابع السائد في الأندلس على آداب الكتابة. فكان الأمراء يستكتبون بعض الكتاب، فقد كان يوسف بن تاشفين يستكتب: عبد الرحمن بن اسباط، ومحمد بن عبد الغفور، وعبد المجيد بن عبدون...،

ولم تقتصر العلمية على الكتب، بل تجاوزتهم إلى استقدام العلماء والأدباء.

2.1.2-مظاهر تأثر الأدب المرابطي بالأدب الأندلسي

يشكل تأثر الأدب المرابطي بالأدب الأندلسي محط إجماع الباحثين، وخير مثال على ذلك ما أشار إليه حنا الفاخوري في كتابه (الأدب العربي) حيث يؤكد أن الأدب (كان يغلب عليه في عهد المرابطين الطابع الأندلسي) ص.151.

أما الملمح الآخر، فيتضح من طابع الحياة داخل البلاط المرابطي، حيث طبعته الحياة الأندلسية، على اعتبار أن أغلب أدبائه كانوا أندلسيين أو من المغاربة الذين تشبعوا بالآداب الأندلسي، فهذا علي بن يوسف بن تاشفين يمدحه ابن خفاجة والأعمى التطيلي...لذلك يكاد يصبح كل ما قيل من شعر بالمغرب في هذا العصر أندلسيا، وإذا بحثنا عن الشعراء المغاربة وسط الأعداد الأندلسية، وجدناهم لا يتعدون بضعة أسماء: ابن حبوس، وابن بياع، والقاضي عياض وابن القابلة السبتي وابن الزيتوني. فلم يبق بين أيدينا سوى ما قاله ابن بياع وعياض، وأن كلا منهما يبدو على إثره الطابع الأندلسي في صورة واضحة. فابن بياع نجده يحسن سيرا على نهج شعراء الأندلس في موضوع الوصف، ولعل قصيدته في وصف الربيع خير ما يمثل براعته في وصف الطبيعة:

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها ***** وتسربلت بنظيرها وقشيبها**
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها ***** وبدت بها النعماء بعد شحوبها**

أما القاضي عياض فله قصيدة في شكوى الفراق والبعد، ومعاناة السقم والمرض، وصبره على الأرق والحرمان الذي سببه المحب غير المكترث، تقربه إلى حد كبير مما نجده مترددا عن عند ابن زيدون في الفترة التي عاش فيه بعيدا عن ولاّدة:

يامن تحمل عني غير مكترث * لكنه للضنى والسقم أوصى بي**
تركتني مستهام القلب ذا حرق * أخي جوى وتباريح وأوصاب**
أراقب النجم في جنح الليل سهرا * كأنني راصد للنجم أوصابي**
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم * إلا جني حنضل في الطعم أو صاب**

أما النثر، فيعتبر التأثير الأندلسي فيه واضحا، وذلك لكون كتاب المرابطين سبق لهم الكتابة لملوك الطوائف، لذلك فقد صارت وجهتهم الجديدة هي الكتابة باسم الدولة الجديدة كما كان عهدهم مع ملوك الطوائف،

حصة الأسبوع: 14 أبريل 2020

بل إن الفارق الوحيد هو تحولهم نحو كتابة رسائل قصيرة استجابة لطابع المرابطين الذين جعلتهم بداوتهم ميالين نحو الرسائل القصيرة.

ولم يقتصر كتاب الرسائل على الكتاب الأندلسيين، بل كان منهم أيضا بعض المغاربة الذين أجادوا ونبغوا في كتابة الرسائل، ونذكر منهم على سبيل المثال القاضي عياض الذي تأثر أسلوب الكتابة لديه بأسلوب الكتابة الأندلسية، وهو ما يجسده هذا المثال من رسالة كتبها إلى أحد أصحابه حيث جاء فيها:

(مالي ولك أيها الماجد، وقاك الله شر كل حاسد، تسح علي من سحب بيانك، وتجري قلبي طلقا ملء عنانك، وتكلفني من مباراتك ما ليس في وسعي، وتحملني من مجاراتك ما يعجز عنه قلمي وطبعي، فمهلا قليلا، لعلي أَشفي من مراجعتك غليلا، وأُعمل في محاورتك ذهنا كليلا، وإلا فاطو في ذلك بساط العتاب، واقنع مني بما يرفع حرج الكتاب، واكتف بأطال الله بعاءك، ووصل علاءك، ووقَفَت علي كتبك وما تضمنه من آدابك، وأنا شديد الشوق إليك، والسلام الجزيل عليك).